٧٥-سورة القيامة

وزارة المعارف العمومية

# تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

## الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم ( جامعة فؤاد الأول بالقاهرة )



المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

# سورة القيامة مكية

وهى أربعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾

افتتحت هذه السورة بتحقيق أمر البعث، وأن الناس لا يتركهم ربهم سدى من دون حساب، مؤكدا ذلك بالقسم حسب عادته تعالى فى الإقسام بما عظم خطره من مخلوقاته. وقد أقسم هنا بيوم القيامة على وقوع يوم القيامة. وفى ذلك تقريره، وتحقيق لأمر وجوده. وظاهره نفى القسم، لكن المراد بهذا النفى التوصل إلى التأكيد، وكأنه يقول: إن الأمر بيّن فلا أحتاج إلى أن أقسم عليه، وهذا القول يؤكد الخبر أشد تأكيد، قال أبو مسلم: [ لا ] ههنا لنفى القسم، كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكننى أسألك غير مقسم: أتحسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ فإن كنت تحسب ذلك فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك اهـ.

وقيل إن [ لا ] نافية لمحذوف، وليست نافية للقسم وأن التقدير (لا) صحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب. ثم استأنف فقال: ﴿ أقسم بيوم القيامة ﴾ و﴿ بالنفس اللوامة ﴾ أنكم ستبعثون. وهذا على عادة العرب من زيادتهم [ لا ] قبل [ أقسم ] كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه فيفيد التأكيد. وقد مر فى سورة الحاقة زيادة إيضاح لذلك عند قوله تعالى: ( فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ).

وجواب القسم هنا محذوف دل عليه قوله بعد: (أيحسب الإنسان الخ) والتقدير " لتبعثن ولتحاسبن ". ثم عاد فاستفهم على وجه الإنكار أن يكون الله تعالى عاجزا على خلق الإنسان ثانية فقال: ﴿أيحسب الإنسان الخ﴾.

وفى إقسام الله تعالى بالنفس اللوامة ثناء عليها وتنويه بشأنها. وقالوا: إن المراد بها النفس التى لا تزال تلوم ذاتها وإن اجتهدت فى الإحسان والعمل الصالح. وقال الحسن البصرى: " إن

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾

البار لا تراه إلا لائما نفسه ، وإن الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه " ، قدما : أى من دون أن يعرج أو ينثنى . وقد ذكر الوحى فى سورة الفجر أختا للنفس اللوامة ، وهى النفس المطمئنة مذ قال تعالى : ( يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ) . والنفس المطمئنة هى الثابتة فى عملها ، الموقنة بما وعد ربها . وهذه النفس على فضلها وعلو منزلتها عند ربها مذ قال لها : (ادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) — يوشك أن تكون أختها — النفس اللوامة — أفضل منها ، وأعلى منزلة ؛ لأن اللوامة لا تستقر على حال من قلقها وخوفها أن تكون قصرت فيما يجب عليها من بلوغ الكمال الدينى والأخلاقى المطلوب منها .

فالله تعالى يقسم بالنفس التى هذه حالتها ، الناصبة فى طاعة ربها ، مرغبا فى طريقتها ، وحاضا النفوس الأخرى أن تكون على مثل شاكلتها ؛ فلا تبلغ درجة من الكمال حتى تُتلِعَ إلى الدرجة التى فوقها ، ولا تمارس فضيلة أو تقوم بعمل صالح حتى تفرغ إلى آخر أمثل منه . هذه النفس التى تحيى فى الدنيا مثل هذه الحياة لا يدعها خالقها من فضله ، ولا يمنعها من عدله ؛ فهو سوف ينقلها إلى دار كرامته ، ويغمسها فى كوثر رضاه ورحمته . ولولا ذلك لكانت نفوس العجماوات والحشرات خيرا منها وأحسن عاقبه ، ويكون الخالق أشد رحمة وعناية وإحسانا بهذه النفوس الهاملة ، من تلك العاملة الكاملة ؛ إذ أنه تعالى أراح العجماوات من وخز الضمير والوجدان ، وخفف عنها عبء طلب الكمال الذى اؤتمن عليه الإنسان . تعالى الله ، وتنزه عدله، وتقدست صفاته عن مثل ذلك . وعلى هذا يكون القسم بالنفس اللوامة فى صدر تحقيق أمر يوم القيامة — مما يشير وينبه إلى ما ذكرناه من الدليل العقلى عليه . وما أحسن ما قاله بعضهم مستدلا على وجوب طاعة الله ولزوم عبادته .

هب البعث لم تأتنا رسله     وجاحمة النار لم تضرم
أليس من الواجب المستحق     ثناء العباد على المنعم

وقوله : ﴿أيحسب الإنسان الخ﴾ يريد مطلق إنسان من دأبه تكذيب الوحى ، وإنكار البعث ، وإن كانت الآية واردة فى معرض الرد على إنسان خاص ، وهو عدى بن ربيعة . وقصة ذلك أن عديا هذا وختنه — الأخنس بن شريق — كانا جارين للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان جوارهما بئس الجوار ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول فيهما : " اللهم اكفنى جارى السوء "، فجلس

بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾

عدى يوما إلى رسول الله وطلب منه أن يحدّثه عن يوم القيامة ، فذكر له شيئا من أمره ، فقال له عدى : " أما والله لو رأيت ذلك اليوم بعيني لم أصدّقك يا محمد ، ولم أومن بك ولا به . أيمكن أن يجمع الله العظام ؟" فنزل الوحى فى الردّ عليه ؛ فأقسم أولا بيوم القيامة نفسه وبالنفوس الناصبة فى طاعة ربها إرادة النجاة فى ذلك اليوم، ثم قال : ﴿ أيحسب الانسان ﴾ عدى وأحزابه ممن حال الجهل بينهم وبين الاعتبار بشمول القدرة الالهية ﴿أن لن نجمع عظامه﴾ أى لن يقع منا جمع لعظامه بعد موته وتفرقها . ﴿ بلى ﴾ نجمعها . و[ بلى ] تقع بعد المنفى فتثبته . وفى [ نجمعها ] المقدّر معنى القدرة ؛ فيكون قوله ﴿ قادرين على أن نسوّى بنانه ﴾ حالا من فاعل [ نجمع ] مؤكدا القدرة التى تضمنها الجمع . كأنه يقول : نقدر على جمع عظامه مع قدرتنا فوق ذلك على تسوية بنانه ، و[ البنان ] أطراف الأصابع ، والأصابع نفسها . وأراد بذكره [ تسوية البنان ] أنه تعالى قادر على جمع عظام الإنسان ، وإعادة تركيب أعضائه كلها كما كانت أولا ، فيتمثل بشرا سويا كاملا لا ينقصه شىء حتى أطراف أصابعه التى هى أصغر أعضائه ، ومنتهى أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه ؛ فذكر تسوية البنان مثل فى الكمال وعدم النقصان .

أو المعنى : أنه تعالى قادر على إعادة جسم الإنسان إلى سابق حالته بعد أن يكون قد مات وانحل تركيب أجزائه وفسد تكوين أعضائه ، حتى ألطفها حجما ، وأدقها تركيبا ، وهى البنان ؛ فهو تعالى قادر على إعادة خلق الإنسان بالغا هذا الحدّ من الكمال فى تلك الإعادة .

فالمعنى الأول يرمى إلى إعادة الإنسان كاملا فى الأعضاء وعددها ، والثانى يرمى إلى إعادته كاملا فى تكوينها واستجماع شرائط قيامها بوظائفها .

وقيل إن المراد بالبنان الأصابع نفسها لا أطرافها، وإن المراد بتسويتها جعلها مستوية قطعة واحدة ذات صفيحة جامدة كخف البعير فلا ينتفع بها . وهو تعالى لم يجعلها كذلك ، بل جعلها تفاريق ذات أطوال متناسبة ، ومفاصل متحركة ، وأنامل ململمة ، ومواتاة تامة فيما يطلب منها من الانضمام والانفراج ، والانقباض والانبساط، بحيث كانت نعمت الآلة للتناول ومزاولة الأعمال المختلفة . ولا كذلك البعير والحمار اللذان لا يقدران على استخدام الخف والحافر فى طرق الانتفاع المختلفة كما يفعل الإنسان بيده ، فيضطران إلى أن يتناولا طعامهما وشرابهما بفميهما مباشرة .

ولعل المعنى الأول هو الأليق بالمقام ؛ لأن القصد إثبات أنه تعالى قادر على إعادة الانسان خلقا سويا يوم القيامة، لا إثبات أنه قادر على أن يخلقه فى دار الدنيا بأى صورة أرادها.

بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾
فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾

قوله ﴿بل يريد الخ﴾ إضراب عن شان الإنسان الذى وبخه عليه فى الآية السابقة ، وانتقال إلى ذكر شأن من شئونه أعجب ، وسريرة من سرائره أغرب . كأنه يقول : لا أرى الجهل يبلغ بالإنسان إلى حد إنكاره قدرتنا على جمع عظامه ، ومحاسبته على سوء أعماله ، ﴿بل يريد﴾ ذلك الإنسان بهذا الإنكار الانطلاق من كل قيد ، والتفلت من كل سلطة ؛ لأجل أن يفجر ﴿أمامه﴾ ويركب فى غمط الحق واقتراف الآثام رأسه ، ثم لا يقلع عن ذلك حتى يلاقى حمامه ، وتقوم عليه القيامة .

و[ الفجور ] انبعاث المرء فى الذنوب ، وانحرافه عن حدود الشرع وأوامره من دون أن يخامره شعور خوف أو خشية . وتعلق الظرف وهو [ أمامه ] به يدل على أنه مضمن معنى الدوام والتمادى والاسترسال كأنه يقول : يريد الإنسان فى إنكاره البعث أن يفجر مصرا ومتماديا فى طريقه الذى أمامه إلى آخر عمره ، فهاتان الكلمتان [ يفجر أمامه ] فى إفادة معنى اللجاج والإصرار مثل قولهم : "ركب رأسه" ، و"خلع عذاره" . والمعنى أنه ممعن فى إساءته ، مصر على باطله لا يثنيه عنه شيء ، ولا يخشى فيه أحدا .

وهذا الفاجر المتعامى عن الحق المتمادى فى الضلالة كلما نصح له ناصح بالكف والارعواء ، أو خوّفه مخوّف من عذاب الله ومحاسبته له على أعماله يوم القيامة ﴿يسأل﴾ ناصحه أو مخوفه سؤال سخرية واستهزاء وعنت ﴿أيان يوم القيامة ؟﴾ أى متى وقته ؟ وقريب هو أم بعيد ؟ هو يسأل الآن ، ﴿ فإذا برق البصر ... يقول ... أين المفر﴾ ففى هـذه الآيات وصف لبعض أحوال ذلك اليوم بيان ما يكون فيه من شأن ذلك السائل المنكر .

ومعنى ﴿برق البصر﴾ زاغ وتحير حتى لا يطرف ، أو دهش فلم يعد يبصر . وأصله أن يرى الشخص البرق الشديد اللمعان فيخطف بصره ويدهش فلا يعود يرى . ثم استعمل فى كل حيرة ودهش يعترى البصر ولو لم يكن مسببا عن رؤية البرق . ومثله فى ذلك [ صَعِقَ الرجل ] إذا وقع مغشيا عليه . وأصله أن يقع هذا به بسبب إصابة الصاعقة له ، ثم عم استعماله فى كل غشى .

وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾

﴿وخسف القمر﴾ ذهب ضوءه وأظلم . وهذا يكون منه وقت أن يتأذن الله بخراب هذا العالم ، وتغيير نظامه ، ونسخ أحكامه ؛ فلا تعود الأرض أرضا ، ولا السماء سماء . وقد عبر الوحى عن هذا الارتكاس والاضطراب العام فى العالم بقوله : ( وفتحت السماء فكانت أبوابا ) أى مفتحة الأجرام . مفرّقة الأجزاء ، وبقوله : ( إذا السماء انشقت ) أى تصدّعت ، ووقع الاضطراب فى نظامها العام ، فاختل تركيبها ، وفسد تكوينها ، وبقوله : (وإذا النجوم انكدرت) أى تناثرت منقضة من كل جانب . يقال : انكدر علينا القوم إذا جاءونا متتابعين من كل صوب وبقوله : ( وإذا الكواكب انتثرت ) أى تساقطت متفرقة فى كل ناحية . فإذا كان هذا شأن السماء بمجموعها ، والأجرام بأفرادها — فهل يعقل أن يبقى للقمر نوره المعهود أو يخسف؟ وهل يتصوّر أن يبقى كل من القمر والشمس فى فلكه ، وعلى هيأته وشكله ، أم يتغير؟ إن انكدار النجوم وانتثار الكواكب أمر يعم أجرام السماء كلها ، وفى جملتها الشمس والقمر . فهل إذا انتثر هذان الكوكبان ، وزايلا مداريهما — وأحدهما وهو الشمس أكبر من الآخر وهو القمر بنحو خمس وستين مليون مرة — لا يجذب أكبرهما أصغرهما إليه ؟ وإذا جذبه إليه التقيا معا فى حيز واحد بالضرورة ، وهذا معنى قوله : ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ . وقولنا إن الشمس تجذب إليها القمر بقوة الجذب العام افتئات على الغيب ، وإلا فالله سبحانه وتعالى أعلم بأية قوة يجتمعان ، وكيف يكون ذلك الاجتماع ، وعلى أى شكل يقع ، فإن ذلك مما لا يمكن القول فيه بالرأى ، فندع أمره إلى الله ، ونقتصر من الاعتقاد على ظاهر الآية : من أنهما يجتمعان اجتماعا يبقى معه الإنسان إنسانا تامّ التركيب ، سليم الأعضاء ، له بصر يبرق ، ولسان ينطق . وفى ذلك الوقت الذى يبرق فيه البصر ، وتقع الأحداث الأُخَرْ ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟﴾ أى أين الفرار المنجى من هذه الكارثة ، والمؤدى إلى الراحة والأمنة . فيجاب حينئذ بما قال الله ﴿كلا !﴾ أى دع عنك المحال ، وطلب ما لا ينال ؛ إذ ﴿لا وزر﴾ ولا ملجأ تلجأ إليه ، ولا حرز يعصمك مما نزل بك من أمر الله .

و [ الوَزَرُ ] المعقل ، والحصن ، والمعتصم ، والملجأ . يقال : " أَنت حصنى ووَزَرى " وأصل معنى الوزر فى اللغة الجبل . قالوا : كان الرجلان يكونان فى ماشيتها ؛ فلا يشعران بشىء

إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

حتى تأتيها الخيل مغيرة ، فيقول أحدهما لصاحبه : "يافلان ، الوزرَ الوزرَ ، الجبلَ الجبلَ" وكانوا فى الجاهلية إذا خَشُوا عدوًا قالوا "عليكم الوزر" أى عليكم الجبل التجئوا إليه ، واعتصموا به . ثم شاع استعماله فى كل حرز وحصن وملجأ يمنع ولو لم يكن جبلا .

وكأن سائلا يسأل : إذا لم يكن للناس يومئـذ وزر أو ملجأ يلجئون إليه فهل يبقون فوضى مشتتين أم يصبح لهم مقر يستقرون فيه ، ومنتهى ينتهى حالهم إليه ؟ فلهذا قال : ﴿إلى ربك﴾ لا إلى غيره سبحانه وتعالى ﴿يومئذ﴾ يوم وقوع ما ذكر من الأحداث والكوارث ﴿المستقر﴾ أى الاستقرار والسكون والالتجاء ، فله يومئذ الأمر ، وإليه الحكم ، وبه الرجاء ، ومنه ينتظر انكشاف اللأواء .

قوله : ﴿ينبأ الإنسان الخ﴾ استئناف لبيان ما يقابل به الإنسان بعد أن يصير أمره إلى ربه . قال إنه يومئذ يكشف له الغطاء عن أعماله ، فيخبر بها كلها : بالذى قدمه منها وكسبه بالفعل من خير وشر ، وبالذى أخره ، فلم يعمله ، بل نوى فعله من خير أو شر . إلى هذا الحد من الإنباء والاطلاع يُكشف الأمر للانسان ، فهو لا ينكشف له ما فعل فقط بل ما لم يفعل أيضا . وهذا هو معنى قوله ﴿بما قدّم وأخر﴾ .

ويحتمل أن يكون المراد بالذى قدّمه ما فعـله من الأعمـال الصالحة ، وبالذى أخره ما لم يفعله منها ، وإنما سوّف فيه كسلا وإهمالا .

أو المعنى بما قدّم بين يديه إلى الآخرة من خير وشر ، وبما أخر بعد موته فتركه فى دنياه ينسج الناس على منواله بعده : من بدعة حسنة أو سيئة ، وسمعة طيبة أو قبيحة . كما قال تعالى فى آية أخرى ( ونكتب ما قدّموا وآثارهم ) أى نكتب أيضا ما أخروه من آثار أعمالهم الباقية على مر الزمان بعد مماتهم ، كما نكتب ما قدّموه فى حياتهم .

ثم أضرب عن ذكر هذا النوع من إنباء الإنسان بأعماله ، وارتقى إلى نوع منه أتم وأكمل ، فقال : ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ والمراد [بالبصيرة] هنا الحجة والشاهد يشهد بإثبات أمر : يقـال : جوارحه بصيرة عليه ، أى شاهد وحجة عليه . ومنه "اجعلنى بصيرة عليهم"، أى شاهدا أو رقيبا . وقال تعالى فى سورة يوسف : (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى أدعو إليه تعالى حالة كونى على حجة وبينه ودليل قاطع .

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ ﴾

ومعنى الآية أن الإنسان ينبأ يوم القيامة بأعماله على أنه هو نفسه حجة شاهدة على نفسه وسوء أعمالها ، وقبح آثارها فى دنياها ، فلا حاجة فى ذلك اليوم إلىّ ثبت آخر غيرها .

وهذه الآية بمعناها هذا تتفق مع آية الإسراء (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) من حيث إن الانسان يوم القيامة تماط عنه غشاوات الوهم والالتباس ، فتتجلى له الحقائق كما يتجلى البدر لعيون الناس : يتجلى له ذلك ويدركه و يقتنع به فى سره ﴿ ولو ألقى معاذيره ﴾ أى ولو حمله الخجل وفرط الاستحياء على الجدل عن نفسه بالباطل ، والإدلاء ببعض الأعذار الكاذبة لها ، فإن الأمر مع هذا يبقى واضحا له ، وشهادة نفسه عليه أحق بالقبول من هذه المعاذير .

والمتبادر أن يكون المراد بالمعاذير الأعذار ، لكن الأعذار واحدها عذر . والمعذرة جمعها معاذر[1] لا معاذير ، ومن ثم قال بعضهم : إن [ المعاذير ] اسم جمع لمعذرة لا جمع لها . أما الضحاك والسدى فذهبا إلى أن المعاذير فى الآية جمع معذار وهو الستار[2] ، كأنه يقول : إن الإنسان بإذعانه واقتناعه يومئذ يصبح حجة على نفسه ولو ألقى عليها ستورا كثيفة من الحجج والأعذار ، فإنه لا شىء من تلك الستور يمكن أن يحول بين الانسان و بين ظهور آثار الاقتناع والإذعان عليه يوم القيامة .

ذهب القفال إلى أن الكلام فى هذه الآية ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ متصل بالحديث المسوق فى الآيات قبلها ، وأن الخطاب فيها لذلك الجاحد الذى يفجر أمامه ، و إذا خوفه مخوف بيوم القيامة أجابه مستهزئا ساخرا : (أيان يوم القيامة ؟) حتى إذا جاء ذلك اليوم لم يجد مفرا إلا إلى الله ، ونُبِّئَ بما قدّم وأخر . وقد عُلم من آيات أخرى أن الإنسان يُعْطَى يوم القيامة صحيفة عمله ، و يقال له : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ، فاذا أخذ فى قراءتها تلجلج وتكلف الاسراع فى القراءة ، لينجو من هذا الموقف المخزى ، فيقال له : ( لا تحرك به ) أى بعملك وتلاوته ( لسانك )

---

(١) على أن بعضهم يجوز إشباع كسرة الذال فى معاذر وأشباهه لضرورة وغير ضرورة ، ولعل الذى حسن الاشباع هنا إرادة المزاوجة بكلمة ( بصيرة ) .

(٢) بلغة اليمن . وفسر بعضهم المعاذير بالحجج كأنه جمع معذور أو معذار بمعنى الحجة ، لكن هذا المفرد لا يستعمل ، فيكون معاذير من الجموع التى لا مفرد لها كالمذاكير وأخواتها .

إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾

مريدا التفصّي والتخلص منه بهـذه العجلة ؛ فانه يجب علينا بحكم الوعد والحكمة أن نجمع عملك ، ونقرأه عليك ؛ ( فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ) بالإقرار والاعتراف ( ثم إن علينا بيانه ) بيان أمره ، وشرح مراتب عقوبته .

فضمير ( به ) وما بعده من سائر الضمائر ترجع إلى عمل الإنسان المسطور فى صحيفته المعهودة وقوله تعالى بعد : ( كلا بل تحبون العاجلة الخ ) خطاب لذلك الإنسان وأضرابه ، وردع لهم عما هم فيه من حب العاجلة الفانية ، وبذلك يبقى الحديث واحدا ، والسياق متصلا .

هذا قول القفال . ولكن المشهور بين المفسرين أن الخطاب فى قوله تعـالى ( لا تحرك ) للنبى صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى (به ) والضمائر الأخرى ترجع جميعها إلى القرآن ؛ فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان يصعب عليه حفظ آيات القرآن وجبريل يلقيها عليه ، فكان يحرك لسانه وشفتيه بتلاوة الآيات قبل أن يفرغ جبريل مخافة أن تتفلت منه وينساها حين التبليغ ، فنهى عن ذلك فى سورة طـه مذ قيل له : ( ولا تعجل بالقرآن من قبـل أن يقضى إليك وحيه ) ، كما نهى فى هـذه السورة أيضا فقيل له : ( لا تحرك به لسانك ) أى بالقرآن والوحى الذى يلقيه عليك جبريل ( لتعجل به ) أى لأجل أن تعجل بأخذه وتلقفه منـه ، ثم علل نهيه عن التحريك بقوله : ﴿ إن علينا ﴾ كما وعدناك ولمـا اقتضته حكمتنا ﴿جمعه﴾ فى صدرك حتى نثبته فيه ، ﴿ و ﴾ إن علينا أيضا ﴿ قرآنه ﴾ أى قراءته ، وهذا هو معنى القرآن : مصدر قرأ قراءة وقرآنا ، ثم غلب القرآن على كلام الله المودع بين دفتى المصحف . ومعنى إن علينا قراءته : إن علينا أن نوفقك لقراءته ودراسته بلسانك ؛ فتحفظه عن ظهر قلب ثم لا تنساه . ويحتمل أن يكون [ قرآنه ] بمعنى جمعه ؛ فان ( قرآن ) أيضا مصدر قرأ الشىء جمعه وضم بعض أطرافه إلى بعض ؛ (فقرآنه) إذن معطوف على (جمعه) عطف تفسير ، كأنه يقول : إن علينا جمعه وتأليف أجزائه بعضها مع بعض.

﴿ فإذا قرأناه ﴾ عليك بواسطة جبريل فاستنصت حتى يفرغ ؛ وإذا فرغ ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أى تتبع فى نفسك قراءة جبريل مصغيا ؛ وكن على ثقة من وعدنا لك بأنك تحفظه ويرسخ فى قلبك ، ولا تجعل قراءتك مقارنة لقراءة جبريل . فكان صلى الله عليه وسلم من ذلك اليوم إذا ألقى جبريل عليه الوحى أطرق واستمع ؛ فاذا ذهب قرأه فى نفسه كما علّمه ربه ؛ فيجده محفوظا منقوشـا على

ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

لوح قلبه الشريف . وكما كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه بالقرآن وجبريل يلقيه عليه حرصا على استظهار الألفاظ — كان أيضا يقف فى خلال إلقاء جبريل القرآن عليه وقفة المتسائل المستفسر حرصا على فهم المعانى ، فنهاه ربه عن ذلك أيضا ؛ ووعده بأنه يبين له ما أشكل عليه بعد أن يحفظ الآيات ، وترسخ ألفاظها فى نفسه . وهذا معنى قوله : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى تفسيره وإيضاحه والكشف عن معانيه .

هذا ما عليه جمهور المفسرين فى معنى الآيات ؛ لكن يبقى اشكال فى وجه ارتباطها بما قبلها ؛ وكيف صح الانتقال من خبر المكذبين بيوم القيامة ؛ وأنهم سينبأون فيه بأعمالهم كلها — إلى نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه بالقرآن تعجيلا بحفظه واستظهاره ؛ ثم الرجوع إلى الحديث مع المكذبين بقوله : ( كلا بل تحبون العاجلة ) ؟

وأحسن ما قيل فى الجواب أن الآيات السابقة كانت هى نفسها السبب فى نزول هذه الآية أى آية نهيه صلى الله عليه وسلم عن تحريك لسانه ؛ فبينما كان جبريل يلقى عليه هذه السورة من أولها : ( لاأقسم بيوم القيامة ) آية فآية كان صلى الله عليه وسلم يحرك لسانه تعجيلا إلى الاستظهار والحفظ ؛ فأوحى إليه ربه آية ( لا تحرك به لسانك ) ، ولقنه إياها جبريل غضة طرية فى غضون تلقينه الآيات التى حرك بها لسانه ؛ ليكون ذلك أدعى إلى رسوخ مضمون آية النهى فى نفسه ، وتأدبه بأدبها . ومثلوا لذلك بالمعلم يلقى على تلميذه مسائل من العلم والتلميذ يكتبها فى صحيفة له ، ثم عثر على هذه الصحيفة بعد ذلك فوجد فى غضون مسائلها العلمية هذه الجملة " لا تلتفت يمينا ولا شمالا " فيتعجب المتعجب من وجود هذه الجملة محشورة بين مسألتين من العلم غريبتين عنها حتى إذا عرف السبب ؛ وأن التلميذ كان فى أثناء الإلقاء يتلفت يمينا وشمالا ؛ فنهاه أستاذه بهذا القول المثبت فى الصحيفة بطل العجب . ولله ورسوله ووحيه المثل الأعلى ، على أن هذا المثال إن كان المفسرون فرضوه فرضا فان فى كتب المحدثين مثالا له وقع بالفعل : ذلك أن بعض علماء الحديث كان يحدث الناس ، فدخل عليه رجل صالح كثير التهجد فلما وقع نظره عليه استطرد قائلا : "من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه فى النهار"،ثم رجع إلى ما كان فى صدده من الاحاديث ؛ فظن بعض من كان يكتب عنه أن قوله "من كثرت الخ" حديث ، فرواه عنه وروى الإمام مسلم فى صحيحه فى باب أوقات الصلوات الخمس حديثا جاء بين أحاديث الباب

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾

غريبا عنها : لا علاقة له بها ، وهو قوله : "حدثنا يحيى بن يحيى التميمى ، أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير قال سمعت أبى يقول : لا يستطاع العلم براحة الجسم" اهـ . ولا بد من مناسبة عرضت للإمام مسلم وهو يحدث حملته على الاستطراد إلى هذا الحديث .

ثم بعد أن أتم الوحى تعليمه صلى الله عليه وسلم كيف يفعل حين إلقاء القرآن عليه ؛ وأراد العود إلى الحديث مع المخاطبين خاطبهم بكلام لف فيه ما كان عاتب عليه النبى عليه السلام من أجله ونهاه عن فعله ؛ فقال : ﴿ كلا ﴾ أى ارتدعوا أيها البشر عما أنتم عليه من العجلة فى شئونكم وحب التسرع فى الوصول إلى أغراضكم ؛ وهذا خلق عام شامل لجميع أفرادكم ، حتى من كان منكم فى أعلى درجات الكمال ، وأعظم مراتب العصمة ؛ وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لم يخل من عجلة فى بعض حالاته .

أنتم أيها البشر المكذبون لم تكذبوا بالوحى إيثارا للحق كما تزعمون ﴿ بل ﴾ من فرط عجلتكم أنتم قوم ﴿تحبون العاجلة﴾ أى الدنيا الفانية التى بين أيديكم ؛ وتؤثرون ملذاتها ﴿وتذرون الآخرة﴾ التى لم يحن وقت مجيئها بعد ، فتدعونها وتهملونها ؛ معرضين عن الأعمال الصالحة المؤدية إليها — كل ذلك بمقتضى فطركم وطباعكم التى غرز فيها العَجَل .

وأنت يا محمد من حرصك على الآيات الآمرة بالفضائل والكمالات — تعجل بتحريك لسانك بها ؛ وتنسى ما وعدك ربك : من أن الآخرة لك ،ولا تكون لك إلا باتمام توفيقك إلى حفظ القرآن ؛ واستظهار آياته كلها من دون نقصان .

فكلا الفريقين خلق من عجل ؛لكن عجل المكذبين فى الشر والعمل السيئ والحرص المذموم ؛ وعجله عليه الصلاة والسلام فى الخير والعمل الصالح والحرص المحمود ، ومع هذا فقد نهى صلى الله عليه وسلم عنه ، ونبه إلى وجوب الثقة بالآخرة المحققة له .

وما ذكرناه من معنى الآية فى خطاب المكذبين إنما يفهم منها بنص العبارة ، أما ما خوطب به صلى الله عليه وسلم فيها فإنه يفهم بطريق التعريض والإشارة .

ولما ذكر تعالى أن البشر يؤثرون الدنيا ولذائذها الفانية على الآخرة ومسراتها الباقية — وصف ما يكون فى تلك النشأة الآخرة من انقسام الناس إلى فريقين : أبرار وفجار ، وقال إنه يكون للأولين ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ حسنة جميلة من ظهور آثار النعيم ، وبشاشة السرور عليها كما قال تعالى : ( إن الأبرار لفى نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف فى وجوههم نضرة النعيم )

إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

أى رونقه وبريقه وحسنه وبشاشته: يقال: نضر الشجر والوجه واللون إذا نعم وحسن . ونضره الله [مخففة ومشددة] كأنضره جعله ناضرا ناعما حسنا ، وفى الحديث : " نضر الله أمرأً سمع مقالتى فوعاها " .

ثم وصف تلك الوجوه بوصف آخر وراء النضرة والحسن فقال : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ . وقد اختلف المسلمون فى تفسير هذه الآية اختلافا مبنيا على اختلاف آخر بينهم ، وهو: هل يُرَى الله يوم القيامة بحاسة البصر ؟ ففريق منهم —وهم أهل السنة— قالوا : إنه يرَى بالفعل بحاسة البصر، ولا مانع يمنع من هذه الرؤية ، ولا تستلزم هذه الرؤية أن يكون البارى تعالى جسما يشغل حيزا من الفراغ ؛ فالله قادر على أن يرينا ذاته من دون أن يكون فى حيز ، ومن دون أن يكون على بعد مخصوص منا ، ومن دون أن يكون هنـاك نور ينعكس عنه إلى أبصارنا ، وغير ذلك من الشروط التى تتوقف عليها رؤية المحسوسات فى دار الدنيا عادة . على أن الرؤية ستكون فى الآخرة وللآخرة سنن ونواميس خاصة بها ، وبموجبها نرى الله كفاحا[1] ويكون لنا من وراء هذه الرؤية من البهجة والغبطة والمسرة ما لا يحاكيه شيء من ملذوذات الآخرة وضروب النعيم فيها .

وقد استدل هذا الفريق على مذهبهم بهذه الآية ، وبأحاديث صريحة فى حصولها للمؤمنين يوم القيامة ، حتى إن بعض هذه الأحاديث رواه أكثر من عشرين صحابيا .

قالوا : وأما قوله تعالى : ( لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ) فمعناه أن الأبصار لا تدركه تعـالى إدراك إحاطة واكتناه . فالنفى منصب على الإدراك لا على أصل الرؤية ؛ فهو لم يقل إنه لا يبصر ، وإنمـا قال : لا يدركه البصر . وفرق بين قولك : " ما أبصرته " ، وقولك : "ما أدركه بصرى" : إذ أن الأول يفيد نفى الإبصار ألبتة ، والثانى يفيد نفى أن يكون البصر أدرك المبصر ؛ فالبصر يبصره تعـالى يوم القيامة ، والنفس تتلذذ برؤيته ، غير أن البصر لا يدركه إدراك كنه وإحاطة .

وقال فريق آخر من المسلمين وهم الذين يسمون معتزلة : إنه تعالى لا يرى ولا يمكن أن يرى ، واستدلوا عقلا بأن للرؤية شروطا إذا توفرت كان المرئى جسما ذا حيز ألبتة ، وهـذا لا يجوز

(١) عيانا ومشاهدة .

فى حق الذات القديمة ، ونقلا بآية ( لا تدركه الأبصار ) وقالوا فى آية ( إلى ربها ناظرة ) : إن النظر كما جاء فى لغة العرب بمعنى الرؤية والمشاهدة بالحاسة جاء بمعنى انتظار الشيء وتوقع حصوله وهذا المعنى كثير فى كلام العرب . ومنه قوله تعالى : ( انظرونا نقتبس من نوركم ) ، وتقول : " أنا ناظر إلى فلان ما يصنع بى " تريد أنك تنتظر وتتوقع منه حسن الصنيع فى حقك . وفى حديث أنس " نظرنا النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة حتى كان شطر الليل " وسُمِعَتْ " سروية " — وهى امرأة كانت تستجدى بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقايلهم — تقول : " عُيَيْنَتى نويظرة إلى الله وإليكم " أى منتظرة معروفكم .

فمعنى كون الوجوه ( إلى ربها ناظرة ) أنها منتظرة[1] ومتوقعة وراجية النعمة والكرامة منه تعالى وحده ، غير طامحة ولا متوجهة النفس إلى غيره . وأوَّلوا حديث الرؤية بأن تعلق العلم بذاته تعالى يكون يوم القيامة تعلقا تاما ، وانكشافه انكشافا لا لبس فيه .

والسلف أنفسهم اختلفوا فى تفسير هذه الآية ، بل اختلفوا فى أصل الرؤية الإلهية أيضا : فقال الحسن البصرى : ( وجوه يومئذ ناضرة ) أى حسنة ( إلى ربها ناظرة ) أى تنظر إلى الخالق ، وحق لها أن تَنْضُر وهى تنظر إلى الخالق اهـ .

وقال مجاهد : ( إلى ربها ناظرة ) أى تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شيء اهـ

وقال منصور بن المعتمر : كان أناس يتذاكرون فى حديث "فيرون ربهم" ، فقلت لمجاهد : إن أناسا يقولون إنه يرى . قال : " يرى ولا يراه شيء " .

هذا ولو كان لمثلى مقال فى هذا المجال لفضلت السكوت عن هذه المسألة وأمثالها مما اختلفت فيه ظواهر النصوص ، ولم يلزم منه مس جانب الألوهة ، ولا ينشأ عنه ضرر فى الدين ولا تعطيل فى مصالح البشر . ولو قال المعتزلى لربه يوم القيامة : " إنى يارب لم أنف الرؤية إلا تمجيدا لذاتك ، وتنزيها لها عن مماثلة الحوادث ، وقال السنى : إنى يارب لا أعتقد أن الرؤية تمس مقام ألوهتك ، ولم أثبتها وأعتقدها إلا طمعا فى القرب منك وتلذذا برؤية وجهك — لو قال

(١) ورد الأزهرى أن يكون النظر هنا بمعنى الانتظار قال : لأن العرب لا تقول نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته ، وإنما تقول نظرت فلانا ( أىّ من دون حرف جر ) بمعنى انتظرته . واستدل بشعر للحطيئة ، ثم قال : وإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين المجردة اهـ تاج ، لكن الشواهد الأخرى التى نقلها الزمخشرى تثبت أن النظر بمعنى الانتظار يتعدى بإلى أيضا . ومنها قول الشاعر العربى : ( وإذا نظرتُ إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما ) .

وُوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

كل منهما ذلك — ما كان الله إلا راضيا عنهما ، ومسبلا ذيل عفوه عليهما ، وساخطا من حصول التفرقة فى دار الدنيا بينهما .

ويا ليت المسلمين أضربوا فى صدرهم الأول عن الاختلاف فى أمثال هذه المسألة : مما كان الخلاف فيه لفظيا أو فلسفيا ؛ أو لاتكون له نتيجة عملية ؛ أو لاينقض أصلا من أصول الدين. ويا ليتهم مذ اختلفوا لم يوغلوا ؛ ولم يجعلوا الاختلاف سببا للتفرقة . وهذا قرآنهم يهتف من فوق رءوسهم : ( ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ) ، ونبيهم صلى الله عليه وسلم يقول : "اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه فقوموا عنه" أى إذا شعرتم بأن النظر فى الآيات ، وتقليب وجوه الاحتمال فى معانيها ، — يؤثر فى رابطتكم الدينية — فدعوا النظر بالكلية ؛ خشية التفرقة .

ولعمرى إن انصراف المسلمين منذ قرون عن العلم النافع ؛ وإعراضهم عن النظر فيما يهذب أخلاقهم ؛ ويرقى اجتماعهم ؛ ويشد عرا الإخاء بينهم — هو الذى جعلهم يوغلون فى مسألة الرؤية وأمثالها ؛ ويفرغون للخوض والنزاع فيها . وبذلك تقلص ظل العمل من ديارهم ؛ وقام مقامه الجدل فى مجالسهم وأسفارهم ؛ حتى أوشكوا أن ينطبق عليهم حديث : "ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل وحرموا العمل" .

قلنا إن فريق السعداء الأبرار تكون وجوههم يوم القيامة ناضرة بنضرة البهجة والغبطة والسرور ، وإنهم ينظرون إلى ربهم فيريهم من ذاته ؛ ويحلهم من منازل كرامته — ما تقر به أعينهم ، ويطيب معه عيشهم . أما فريق الفجار فأمرهم على العكس ، وهذا ما قاله الكتاب فيهم : ﴿ووجوه يومئذ باسرة﴾ شديدة الكلوح والعبوس . وكأن قائلا يقول : ولماذا كان حالها يارب ؟ فأجاب ﴿تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أى أنها عبست كل هذا العبوس لما تعلم من سوء أعمالها ، وقبح آثارها فى دار الدنيا ، فهى يوم القيامة [ تظن ] أى تتوقع ويغلب على رأيها [ أن يفعل ] وينزل [ بها فاقرة ] : داهية عظمى تقصم فقار ظهرها . ومن كسر فقار ظهره هلك . فالفاقرة الداهية : سميت بذلك لما ذكرنا ، وجمعها فواقر . ويقولون "عمل به الفاقرة" أى الداهية التى كسرت فقاره . فقوله تعالى : [ يفعل بها فاقرة ] نحا به هذا النحو من الاستعمال . والضمير فى ( تظن ) يرجع إلى الوجوه ، والمراد أصحابها . كما أن المراد بالظن التوقع والرجحان وغلبة الرأى ؛ إذ مادام القوم لم يقذف بهم فى الجحيم بعد ، فهم يتوقعون العفو عنهم ؛ ويؤملون الرفق بهم . ومنهم من

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾

فسر الظن هنا بالاعتقاد واليقين فقال : إن تلك الوجوه توقن بنزول الفاقرة بها لما كسبت من خطيئاتها ، واقترفت من سيئاتها . والظن يكون بمعنى الاستيقان ومنه قوله تعالى : (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) .

ردعهم أولا فى قوله (كلا بل تحبون العاجلة الخ) عن حب الدنيا وإيثارها عن الآخرة ؛ ووصف ما يكون لفريق الأبرار والفجار فيها ، ثم عاد ثانيا فردعهم عما ردعهم عنه أولا من الحب والإيثار ، ووصف لهم ما يلاقونه لحين الموت من اليأس والشدة مشيرا لهم فى ذلك إلى أن الآخرة إن استغربتموها أو استبعدتموها فإن الموت بابها ، وهو من أولى مقدماتها ؛ فقال :

﴿كلا﴾ أى ارتدعوا أيضا عن إيثار الدنيا على الآخرة ؛ واذكروا ما ينزل بكم من فادح الهول ﴿إذا بلغت التراقى﴾ . والضمير فى بلغت يرجع إلى الروح وإن لم يجر لها ذكر لدلالة السياق عليها . ومثل هذا الإضمار معهود فى كلامهم . قال حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

و [ التراقى ] جمع ترقوة . والترقوتان عظمتان تمتدان يمينا وشمالا من ثغرة النحر إلى العاتق . وبلوغ الروح التراقى كناية عن مشارفة الموت ، وظهور أماراته . وأهل المحتضر إذ ذاك يتجلدون عادة ، ويتداعون إلى الصبر ، على أمل مداركة الأمر ، فيقول بعضهم لبعض حول فراش مريضهم : مَنْ طبيبٌ حاذق ترونه أصلح من فلان الذى يطببه ؛ فإن طبيبه لم يهتد إلى دائه ، ولعل فى الثانى فرجا فيوفق إلى شفائه ؟ وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وقيل من راق ؟﴾ .

[والراق] اسم فاعل كقاضى ؛ رقاه يرقيه إذا أجرى له عملية الرقية : وهى أن يُعوِّذ المريض بكلمات سحرية أو دينية ، ثم ينفث فى وجهه أو ينفث فى يدى نفسه ، ويُمرهما على جسم المريض أو فى العوذة التى يكون قد كتبها وبَرَّك عليها . ويحتمل أن يكون المراد بالراق هو هذا المعنى ، غير أنا فسرناه بالطبيب ؛ لأن الأمم القديمة وعرب الجاهلية منهم كان يمارس الشخص الواحد فيهم الطب والكهانة والأعمال الدينية معا ، ويكون هذا الشخص كاهنا وطبيبا ورئيس دين فى آن واحد . وقد كان من جملة وسائل الطب القديم ممارسة الرقية للمريض . فالطبيب الذى يعوده إن شاء وصف له أدوية وعقاقير ، وإن شاء رقاه ، وإن شاء تكهن لهم عن مصيره . حتى إذا احتضر أجرى له المراسم الدينية حسب معتقداتهم .

وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾

وما زال هـذا شأن الطبابة والكهانة والدين فى الأمم القديمة حتى توزعت تلك الوظائف فى الأزمنة المتأخرة ، وقام كل بواحدة منها . ولا يبعد أن يكون عرب الجاهلية قد سموا الطبيب راقيا لذلك ، قالت الخنساء :

لكن سهامُ المنـايا من يصبن له لم يشفه طب ذى طب ولا راقى

قوله ﴿وظن﴾ أى المحتضر ، والمراد بالظن غلبة الرأى ، ويحتمل أن يكون المراد به اليقين ﴿أنه﴾ أى أن الشأن والأمر الذى نزل به هو ﴿الفراق﴾ فراق الأهل والولد والدنيا المحبوبة .

وقوله : ﴿والتفت الساق بالساق﴾ أراد به وصف نهاية الشدّة التى نزلت بالمحتضر بعد أن بلغت روحه تراقيه ، والعرب تذكر الساق فى أمثال مختلفة وتريد بهـا كلها اشـتداد الأمر ، والتحزم له ؛ فيقولون : " كَشَفَ الأمرُ عن ساقه " ، و" قامت الحرب على ساق"، و" قام فلان على ساق " و" قرع فلان للأمر ساقه " ، كما يقولون "ساق المريض نفسه" عند الموت و"سيق المريض" بالبناء للمجهول إذا شرع فى نزع الروح ؛ فقوله تعـالى : (والتفت الساق بالساق) كناية عن اشتداد الأمر على الميت وأهله ، فالتفت فى ساحتهم آخر خطوب الدنيا بأول خطوب الآخرة ، فكأنه جعل للدنيا والآخرة أو خطوبهما سيقانا تلتف وتزدحم ، وقال بعض المفسرين : المراد بالساقين فى الآية ساقا المحتضر ، وأنه عند نزع الروح يضمهما ويلوى إحداهما على الأخرى ، وهذا هو التفافهما ، أو المعنى أنهما يلتفان فى الكفن مشدودتين فلا تفترقان .

ويخطر لى أن التفاف السوق فى الآية كناية عن تزاحم أهل المحتضر وإكبابهم عليه ، والتفاف سوقهم بعضها ببعض حواليه ، كما قال أبو العلاء المعرى :

تجمـع أهـله زُمرا عليـه وصاحتْ عرسُه : أَوْدَى ، فصاحوا
تَكَلَّمْنَـا بأفـواه المنـايا من الأيام ألسنةٌ فصـاحُ

فإذا نزل بك الموت أيهـا الإنسان ، وانتزعك من بين الأهل والصحب والخلان — فهل تدرى إلى أين تقاد وتساق ؟ ﴿إلى ربك يومئذ المساق﴾ ، أى سوقك وجرك من تلابيبك يكون بعد موتك إلى ربك ؛ فهو الحكم العدل ، وله وحده فى أمرك القول الفصل ؛ فكيف لا ترتدع عن حب العاجلة ، ونسيان الآخرة ، وأنت تعلم أن الأمور إلى الله صائرة ؟

فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾

قوله : ( فلا صدّق ولا صلى الخ ) احتجاج على الإنسان الجاحد ، وتفصيل لما أجمله أولا : من أمر عناده وتكذيبه مذ كان يقول : ( أيان يوم الدين ؟ ) ممهدا لنفسه سبيل الاسترسال فى الفجور ، فالوحى بعد أن ذكره بأهوال يوم القيامة ، ووصف من حالته يوم يلاقى حمامه — قال : ﴿فلا صدّق ولا صلى﴾ أى فهو لا (صدّق) بالله ولا بوحيه ولا نبيه ( ولا صلى ) إلى الله ، ولا دعاه ، ولا استغفره من فرط فجوره وجحوده ، وإنما كان يصلى إلى الطواغيت والأصنام ، والأَوْلَى حمل الصلاة على هذا المعنى لا على معنى الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود لما قلناه عند قوله تعالى : (قالوا لم نك من المصلين)، والمراد بالإنسان الذى لا صدّق ولا صلى أبوجهل ؛ فإن ما وصفه من حاله وشكله هنا هو الذى كان السبب فى نزول الآية ، على أن هـذا الوصف والتقريع يصلحان لكل إنسان صنع صنيعه ، وارتكب من الإثم منكره وشنيعه .

و[ لا ] الداخلة على صدّق وصلى نافية مثل [ ما ] غير أن [ ما ] تدخل على الفعل من دون تكرير ، يقال : "ما صدق زيد" كما يقال "ما صدق وما صلى" ، أما [ لا ] فلا بد من تكرير الفعل معها ، فيقال : "لا صدّق ولا صلى ، ولا قام ولا قعد" ولا يقال " لا صدّق " أو " لا قام " من دون تكرار ، وكلما تكررت الأفعال مع [ لا ] راجت فى الاستعمال ، وحسن وقعها فى النفوس كقول الزاجر :

تسألنا عن بعلها أى فتى ؟ — خب جبان وإذا جاع بكى
لا حَطَبَ القومَ ولا القومَ سقى — ولا ركاب القوم إن ضلت بغى
ويأكل التمر ولا يلقِّ النوى — كأنه غرارة ملأى حثا (١)

وقوله ﴿ ولكن كذب وتولى ﴾ أى أن ذلك الانسان منكر البعث ما آمن بدين الله ولا عبده ولكن كذب به ، وأعرض عن عبادته ، والقيام بواجب طاعته .

وكان أبوجهل ونظراؤه من صناديد قريش المكذبين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يَغْشَوْن مجلسه ، ويستمعون القرآن منه ، ثم يأخذون فى التكذيب والمشاغبة والاستهزاء ، ويرجع الواحد منهم

(١) معنى (لا حطب القوم) أنه كسول : لا يجمع لقومه الحطب للايقاد والطبخ و(الغرارة) الجوالق ، والحثا (التبن) .

ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾

بعد انفضاض المجلس إلى أهله وعشيرته متكبرا متبخترا، مباهيا بما كان منه فى مجلس النبوة من الجحود والإباء والمكابرة والاستهزاء، والسباب والبذاء، والإسماع والإيذاء، ليكون له بذلك الفضل عليهم، والمنزلة الرفيعة فيهم، وليصرفهم عن الايمان، وتدبر آيات القرآن، وليوقع فى نفوسهم أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن بالأمر الكريم، ولا بالذى يستحق العناية والتعظيم .

هكذا كان شأن الواحد من هؤلاء المكذبين فى معاندة الحق، وإطفاء نور الوحى .

وكان صلى الله عليه وسلم هو والصحابة يتأذون بهم، ويتعوذون إلى الله من شرهم وتخذيلهم عن الاسلام، وصدهم الناس عن الدخول فيه، فكان الوحى السماوى يكفيهم مؤونة أولئك المكذبين المستهزئين بوصف أطوارهم والكشف عن عوارهم، وإطفاء ما أوقدوه للفتنة من نارهم : بمثل ما قاله فى هذه الآيات : من أنك ترى الواحد منهم شديد العناد : (فلا صدق) بالله (ولا صلى) إليه (ولكن) إذا حضر مجلس النبي وتلاوة آيات الوحى (كذب) ذلك كله(وتولى) معرضا عنه زاهدا فيه، ﴿ثم﴾ بعد أن يجادل ويقاوم الحق جهده تراه قد ﴿ذهب﴾ راجعا ﴿إلى أهله﴾ وعشيرته ﴿يتمطى﴾ فى مشيته ويتبختر كأنه عاد إليهم بكنوز كسرى وقيصر، وهو لم يفعل سوى قول الزور والأمر المنكر .

وأصل [يتمطى] يتمطط بثلاث طاءات من المط وهو المدّ، والمتكبر إذا مشى متبخترا يمط أطرافه، ويتكفأ ويرجح بذراعيه، وهذه المشية تسمى المُطَيْطَاء، وهى مشية بنى مخزوم فى الجاهلية وأبو جهل منهم، وقد ورد النهى عنها فى الحديث، وإنما قلبت الطاء الثالثة فى يتمطط ألفاً فقيل [يتمطى] للتخفيف، ولهذه الكلمة نظائر فى اللغة فى الفعل الثلاثى المضاعف إذا جىء به من التفعل، فتتوالى الأمثال، فتقلب الأخيرة ألفاً، فإذا جىء بظنّ من باب تكلم قيل : تَظَنَّنَ وتَظَنَّى، وبقضَّ : تقضض البازى وتقضى إذا هوى ليقع، وبمط : تمطط وتمطى، وهكذا .

وقيل إنّ [تمطى] من [المطا] وهو الظهر ؛ لأن الذى يمشى المطيطاء متبخترا يلوى مطاه، ويوسع خُطاه .

وبعد أن وصف الوحى من أمر ذلك المتكبر المتبختر ما قبح وسمج عاد إليه فقال مخاطبا له : ﴿أولى لك فأولى﴾ وهذه العبارة ذهبت فى لغة العرب مذهب المثل فى التخويف والتحذير والتهديد والوعيد، و(أولى) أفعل تفضيل من وليه الشىء قاربه ودنا منه ؛ فمعنى (أولى لك فأولى) قد

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾

وليك الشر وأوشك أن يصيبك ، فاحذر وانتبه لأمرك ، وقيل إنّ (أولى) بمعنى أحق وأجدر ، أى أن العقاب أو الهلاك يا هذا أجدر بك ، وقيل إنه بمعنى [ويل لك] ، وفى إعادتها وتكريرها فى الآية زيادة تأكيد فى التهديد والوعيد ، ولا سيما اقتران الثانية بثم مذ قال : ﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ أى بعد كل ما تجلّد به وتقوله فى إظهار عدم الاكتراث بأمر الله والخوف من عقوبته فإنى أكرر عليك التحذير والتخويف ، فاحذر وانتبه لنفسك ، قبـل نزول العقوبة بك . والجملة فى أصل وضعها تفيد معنى التهديد والوعيد ، وقد فهم ذلك منها أبو جهل نفسه مذ أخذ صلى الله عليه وسلم يوما بتلابيبه وقال له : " أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى " ، فقال أبو جهل : "أتوعدنى يا محمد؟ والله ما تستطيع أنت ولا ربك فىّ شيئا ، والله لأنا أعز من مشى بين جبليها[1]" ثم لم يلبث أن قتل ببدر شر قتلة ، وتكرير (أولى لك) معهود فى كل مهم ، ومنه قوله :

أردت لنفسى بعض الأمو ر فأولى لنفسى أولى لها

لا شىء فى القرآن أعجب — وكله معجب — من أساليبه فى خطاب المكذبين ، ومذاهبه فى إيراد كلمات النصح والوعظ على أسماعهم ، فهو يمزج لهم مرارة التهديد والوعيد بحلاوة التبشير والترغيب ، وإذا ذكر ما يفيد اليأس منهم ، عاد فذكر ما يشـير إلى الرجاء فيهم ، ولا يذكر آية نار أو عذاب إلا ذكر بعدها آية جنة أو نعيم ، وإذا صـدعهم بكلمات الزجر والتعنيف شفعها بكلمات الترقيق والتلطيف ، وانظر هنا كيف زجر الانسان المكذب أوّلا بقوله : (أولى لك) أى الويل لك ، أو العقاب على مقربة منك ، فاحذر أيها المتكبر المتعجرف وانتبه ، ثم عاد فقال له : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منىّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ .

إن إيراد هذه الآيات اللينة بعد تلك الشديدة الخشنة ليجتذب القلوب المقفلة ، ويفكك عنها عراها ، ويستنزل العصم[2] العاقلة من قننها وشماريخ ذراها .

(١) قوله ( بين جبليها ) أى بين جبلى مكة ، وهذا كما يقال عن المدينة ( بين حرّتيها )

(٢) ( العصم ) جمع أعصم الوعل فى يده بياض و ( العاقلة ) التى اتخذت قنن الجبال معقلا لها تمتنع فيه على صائدها ويضربونها مثلا لكل ما كان ممتنعا بعسر الوصول إليه .

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾

ومعنى (أن يترك سدى) أن يترك هملا: لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف عملا ، ولا يخاطب بشرائع يصلح بها أمره ، ويرتقى على سلمها اجتماعه ، حتى يبلغ درجة الكمال التى قدرها الله له ؟ كلا ، لايحسب الإنسان ذلك ، ولا يتهمن الذات الإلهية بأن تدعه من عنايتها ، وتنساه من عطفها ورعايتها ، بحيث يبقى كالبهائم المرسلة : قصاراها حفظ نوعها بالتوليد وتناول الغذاء ، ثم يكون مصيرها إلى الزوال والفناء . لا جرم أن نوع الإنسان أكرم على الله من هذه العجماوات ، فهو يمده من وحيه وتشريعه بما يسمو به إلى أعلى الدرجات ، فى هذه الحياة وبعد الممات .

إذا تمثل المرء فى ذاكرته شخصه الكريم — عليه الصلاة والتسليم — واقفا على نشز فى برية الحجاز القاحلة ، مشرفا على تلك القبائل الخاملة الجاهلة : التى لم تفقه من أسرار الوجود ونظام الاجتماع ونواميس العمران سوى ما لابد منه فى حفظ حياتها ، بل كانت حياتها أيضا عرضة للفناء والاضمحلال : من تواتر الحروب واستحرار القتال ، وهو صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم هذه الكلمة الحكيمة من وحى ربهم . ويتلتل نفوسهم الجامدة بهذه العظة الاجتماعية من عظات خالقهم : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ؟ من دون شرع يوفر له أسباب الرغد والهناء ، ونظام يكفل له سعادة الاجتماع ودوام الارتقا ؟ — من أعاد إلى نفسه هذه الذكرى مقرونة بجميع ملابساتها من أطوار الزمان ، وأحوال المكان ، وأخلاق السكان — علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجل لا كالرجال ، وشارع إلهى حكيم لم يأت له التاريخ بمثال .

وقوله ﴿نطفة﴾ أى ماء قليل . ﴿يمنى﴾ يراق ويصب . ﴿علقة﴾ قطعة دم غليظة متجمدة . وقوله ﴿فخلق﴾ أى قدّر الله تلك العلقة . ومعنى قدّرها جعلها ذات قدر وشكل ووضع مؤدّ إلى قيامها بوظيفتها ، وحسن الانتفاع بها . فالخلق هنا ليس معناه الإيجاد من العدم ؛ لأنه تعلق بالعلقة وهى سابقة فى وجودها ، لكنها لم تكن مخلقة ومقدرة تقديرا ترتقى فيه فى مراتب الحياة الكاملة ، حتى كان الله تعالى هو الذى قدّرها وكملها . وليس ذلك فقط بل إنه تعالى بعد أن قدّرها سوّاها ، أى جعل أجزاءها وأعضاءها متساوية متعادلة متلائمة : بعضها مناسب لبعض ، ومُوَاتٍ له فى عمله ؛ فلا يقع بينها تضادّ ولا تدافع فى إيفاء وظائفها التى خلق المجموع لأجلها .

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

[ فالخلق ] بمعنى التقدير ملاحظ فيه مجموع الجسم ، وصلاحيته بجملته للغرض الذى خلق من أجله . و[ التسوية ] ملاحظ فيها كل عضو أو جزء بالنسبة إلى الجزء الآخر ، وتلاؤمه معه بحيث تؤدّى كل الأجزاء أو الأعضاء وظائفها على وجه الكمال .

والضمير فى ﴿ منه ﴾ قالوا إنه راجع إلى الإنسان ، أى أنه تعالى بعد أن خلق العلقة فسوّاها إنسانا خلق من الإنسان الذكور والإناث ، يعنى أن الإنسان الواحد يولد له أولاد ذكور وأولاد إناث .

ويخطر لى أنه راجع إلى الماء القليل الذى يُصَب صبا ، فيفيد بذلك زيادة فى تصوير الحالة ، وتجسيم الغرابة أمام عينى الإنسان ، فيدرك أن الزوجين الذكر والأنثى اللذين يتكوّن من بينهما البشر لم يخلقا إلا من مويهة حقيرة : حرارة الشمس تطيرها بخارا ، ومسحة نعل تلاشيها فلا تبقى لها آثارا .

هـذا هو أصل الإنسان والعِرْق الذى ينتمى إليه . فليتدبر الأمر ولينصف فى الجواب على هذا السؤال : ﴿أليس ذلك﴾ الإله الخالق الحكيم ، الذى رَقّى بالإنسان من طور نقصه وحقارته ، إلى طور كماله وسعادته — ﴿بقادر على أن يحيى الموتى ؟﴾ فيرقى بهم من طور التراب الذى صاروا إليه ، إلى طور من الوجود والخلق أكمل يصبحون عليه ؟ بلى ! فإن من قدر على خلقهم من ماء مهين ، قادر بالضرورة على إعادة خلقهم من تراب وطين ، لا سيما والإعادة أهون من البدء ، وجمع المتفرق أسهل من إيجاد المعدوم .

يروى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية ( أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ) أتبعها بقوله (بلى سبحانك !!)